

الثقافة الاستهلاكية في رمضان وانعكاساتها

على سلوك الفرد



الأستاذ: بن عون بودالي-جامعة الأغواط-

البريد الإلكتروني: bts.benaoun@gmail.com

مقدمة:

موضوع الاستهلاك لقي اهتمام كبير من قبل الباحثين في العلوم الاجتماعية "وتظهر تحليلات ماكس فيبر في كتابه (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)، مدى إسهاماته في النظرية السوسيولوجية عامة، وعلم الاجتماع الاقتصادي خاصة، ولاسيما أن هذه الإسهامات اتخذت أبعاداً سوسيو-تاريخية (تاريخ الاقتصاد العام)..وركز في تحليلاته على العلاقة بين الاقتصاد والدين والمظاهر الثقافية الأخرى التي توجد في المجتمع مستخدماً في ذلك العديد من المداخل السوسيولوجية التي اتسمت بها كتاباته وتحليلاته".¹ فالاستهلاك ظاهرة تمس كل شرائح المجتمعات بغض النظر عن دياناتها.

"ولقد حظي الاستهلاك بالاهتمام الأكبر في نطاق علم الاقتصاد، فالاستهلاك من جهة هو ظاهرة أو عملية ذات طابع اقتصادي، مثل العرض والطلب ومعدل الإنتاج وجودة الإنتاج والمنافسة الخ، ومن جهة أخرى، ذو صبغة اجتماعية مثل المستوي الاجتماعي كما أن موضوع الاستهلاك وأهميته في العلوم الحديثة جديرة بالعبء أكثر من قبل عدة تخصصات. حيث لم يقتصر اهتمام الباحثين بظاهرة الاستهلاك في مجال علم الاقتصاد بل امتدت إلى علوم أخرى وعلي الأخص علم الاجتماع، فالاستهلاك يمكن أن نطلق عليه نمط من أنماط الحياة اليومية التي يعيشها الأفراد، فالدراسات التي أجراها العديد من الباحثين الأنثروبولوجيين خاصة منها دراسات مالتينوفسكي وراكلف

وغيرهم كشفت عن أن الاستهلاك يمثل جزءاً مهماً من حياة المجتمعات، فعملية الاستهلاك ذات علاقة وطيدة بالجانب القيمي والعقائدي في حياة تلك المجتمعات، بداية من تحليلات رواد النظريات الكلاسيكية لعلم الاجتماع (ماركس وفير ودوركايم غيرهم) إلى النظريات الحديثة، فإن ظاهرة الاستهلاك تحتل جزءاً أساسياً في البناء النظري.²

هذه الدراسة تدور حول علاقة البعد الدين بالاستهلاك الغذائي في رمضان والتي من خلالها نحدد مفهوم الاستهلاك في علم الاجتماع وتأثره بالنسق الديني، لان ظاهرة الاستهلاك الغذائي المفرط في هذا الشهر ذو الطابع الديني تجعل من الدارس البحث عن الأسباب الخفية وراء هذه الظاهرة في إطار علم الاجتماع الديني لمختلف الرؤى النظرية، بدءاً من التحليل المادي التاريخي لماركس حسب مقولاته الأساسية المرتبطة بتقسيم المجتمع إلى بنية تحتية وأخرى فوقية حتى إلى الرؤية الوظيفية الوضعية لظاهرة الاستهلاك الذي أكدها المفكر ماكس فيبر وهي الرؤية المعاكسة تماماً للتفسير المادي التي انطلقت من أبعاد أخرى، أين يؤكد على أن القيم والأفكار والمعتقدات تؤثر بشكل أساسي في تشكيل الإنتاج والاستهلاك والسلوك الاستهلاكي ولها دوراً فعالاً في تاريخ المجتمعات.

إن الواقع الديناميكي الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية وخاصة في المناسبات الدينية، وما نشاهده فيها من تغيرات في نمط وسلوكيات استهلاكية تجاه التنوع الغذائي بفعل تزايد حاجات ورغبات الأفراد الاستهلاكية بدوافع دينية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وهي بمثابة مؤشرات قوية دالة على تزايد درجة تداخل وظائف عدة أنساق يتفاعل معها الأفراد، تأثراً وتأثيراً خلال فترة زمنية مدتها شهر واحد ألا وهو "شهر رمضان".

حيث يتهيا فيه المجتمع الإسلامي منذ سنوات مضت لاستقبال شهر رمضان بالعبادة، ويتم دورته مرة كل ثلاث وثلاثين سنة، حيث فرض الله تعالى هذا الشهر على المجتمعات الإسلامية في السنة الثانية للهجرة النبوية . يكون لكل فرد مستهلك دالة خاصة له هي "دالة المنفعة"، شخصية حسب التحليل الاستهلاكي تكون قادرة على إشباع حاجاته وفقاً لمنافع السلع، الأمر الذي يؤدي إلى تقلبات الطلب الكلي في السوق، وهذا ما يسبب ارتفاعاً في أسعار بعض المواد الغذائية والسلع الأخرى.

1-الإشكالية:

إن "الدين كظاهرة اجتماعية، يدخل في علاقة تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع وهذه حقيقة تمثل حجر الزاوية في علم الاجتماع الديني"³.

لقد فرض الله سبحانه وتعالى شهر رمضان على المسلمين تقام فيه الشعائر الدينية، والإمساك عن شهوة البطن وهو مدرسة روحية عظيمة القدر، تتجلى فيه المشاركة بين الغنى والفقير وفيه فرص لتربية ملكة الأمانة في شعور الصائم وتزكي فيه ملكة الاستقامة في بناء العقلانية للمجتمع وهو احد دعائم الإسلام وأركانه الخمسة .

يعتبر شهر رمضان بالنسبة للمسلمين، بمثابة المشروع الاقتصادي القائم على تنظيم عقلانية المجتمع وفقاً لمبادئ علمية يؤكد بها الدين، لان تصورات الأفكار الدينية الحقيقية للإسلام هي بالفعل إحدى محددات الزهد في النسق الاستهلاكي بالمعنى الخاص، والبركة الاقتصادية بالمعنى العام، ومن ثم تعد من أسباب تغير هذا السلوك في الاتجاه الصحيح بمعنى الاعتدال في الاستهلاك، ولان سلوكيات الفاعلين الاستهلاكية لكل الفئات من المجتمع الإسلامي يفهم في إطار تصورهم العام لفهم الواقع الموجود، وإن تغير المعتقدات الدينية وتفسير إحدى هذه التصورات الفكرية تؤثر في سلوك الأفراد بما في ذلك الاستهلاكية كعمل اجتماعي. وتظهر مؤشرات تغير في سلوك الفرد الاستهلاكية خلال شهر رمضان، بالمقارنة مع باقي أشهر السنة وهذا واقع اجتماعي بفعل تزايد حاجات ورغبات الأفراد تجاه تنوع السلع الاستهلاكية الغذائية وهي بمثابة مؤشرات قوية لفهم الواقع ودالة على درجة تداخل عدة انساق يتفاعل معها الفاعلين من أفراد المجتمع تأثراً و تأثيراً.

وانطلاقاً من العلاقات السببية للحاجات المتزايدة التي أصبحت ضرورية للفرد في هذا الشهر المبارك انعكست سلباً في كثير من الحالات بعد تجاوز درجة الاستهلاك مرحلة الاعتدال (المنفعة)، وانتقلت إلى مرحلة ما بعد الاعتدال وهي الإسراف والتبذير رغم زيادة الأسعار حتى أصبح شهر رمضان شهر استهلاك بالنسبة للمستهلك وبالنسبة للتجار بمثابة الزمن المناسب لتسويق السلع الاستهلاكية على حساب الوجه الحقيقي لمعنى الصيام .

إن الزيادة في السلوك الاستهلاكي للفرد لكل أنواع السلع الغذائية عامتاً في شهر رمضان، منها حوالي 40 بالمائة من إنفاقه يذهب إلى صناديق القمامات حسب "إحصائيات

مصالح النظافة لبلدية الأغواط- الجزائر"⁴ عوض أن يكون شهر العبادة والبركة الاقتصادية والزهد في الاستهلاك الغذائي ودورة تدريبية يفهم فيها الفاعل بالعقل انه بإمكان التقليل من النفقات في هذا الشهر والابتعاد عن مظاهر الإسراف والتبذير. ومن هذا يمكن النظر إلى الزهد الاستهلاكي على إنه "روح" استهلاكية كنموذج مثالي، وكنسق معياري يتضمن عدد من الأفكار المتداخلة هدفها هو غرس "سلوك" يسعى إلى تحقيق العقلان ويمثل الاستهلاك في أفكار مثل الفترة الزمنية المحددة لشهر رمضان التي تمكن الكثير من الفاعلين في المجتمع بالرجح السريع ما قيمته تقريبا سنة، كذلك تعويض الإمسك عن الأكل في النهار بزيادة الأكل في الليل، كذلك لإرضاء شهوات ورغبات الأفراد تجاه تنوع السلع...الخ" وكسب المال في حد ذاته غاية مشروعة للتاجر في زيادة ثروته و تضاعفها"⁵ في هذا الشهر وهذا يخرج روح الاستهلاك الغذائي من مجال الطموح المثالي إلى نوع من التخلف عن البعد الديني لأنها تفتقد لتلك الأخلاق السامية التي تدعو إلى الزهد في الاستهلاك الغذائي. وللبحث عن العوامل الأساسية لنشوء الروح الاستهلاكية المثالية تعين علينا البحث عن نسق الأخلاق الإسلامية التي يتميز بها المجتمع الجزائري، والبحث عن معايير وقيم السوق الإسلامية وتشريعاتها وقوانينها لان "هذه الظاهرة أصبحت حقيقة اجتماعية وواقعية كفعل اجتماعي خارجة ومستقلة عن الفرد وقاهرة له"⁶. فظاهرة الزيادة في سلوك الفرد الاستهلاكية في شهر رمضان كما أشرنا، ضابط يمكن أن تولد الفرد بداخله هذا الشعور وتعرض نفسها له على الأقل كفرد، كجماعة، كنسق اجتماعي لهذا السلوك والذي يتولد عنه فعل موجه في شهر رمضان يجبر الفرد (بما انه فاعل داخل في نسق من علاقات السوق) ليتوافق مع قواعد الاستهلاك الواقعية.

إن ما يمكن إن يفسر زيادة الاستهلاك الغذائي لدى الأفراد والجماعات في هذا الشهر المبارك رغم ارتفاع الأسعار كثيرا ما يعود إلى مجموعة من العوامل التي لا تخضع لقواعد السوق التي تملي على أن الزيادة في الأسعار يتم بعد الانخفاض في الاستهلاك. ولقد أصبحت ظاهرة الاستهلاك المفرط للسلع الغذائية في رمضان فضاءً واسعاً، لا يمكن أن ننظر إليها من جانب واحد، ولكن يجب النظر إليه من عدة زوايا (السببية عند ماكس

فيبر) وهي مجموعة من الأنساق المتفاعلة فيما بينها تؤثر وتتأثر في الظاهرة، حيث تعتبر الأفراد في هذا الشهر بمثابة القوة الفاعلة الرئيسية فيه.

وانطلاقاً من الحاجات المتزايدة لأفراد المجتمع في هذا الشهر الكريم، خاصةً فيما يتعلق بالسلع الغذائية تبرز تغيرات في سلوكيات هذه الأفراد تجاه هذه السلع مما يجعلها مولعة بظاهرة الاستهلاك لمجرد الاستهلاك فقط للعديد من المواد الغذائية الرمضانية إن صح التعبير التي ترتبط بالحركة الاقتصادية فتشكل بذلك جملة من الارتباطات العضوية التي تشكل الوظائف الأساسية لظاهرة الاستهلاك في رمضان.

لقد انعكس إشباع هذه الحاجات المتزايدة في هذا الشهر المبارك لدى الأفراد سلباً، في كثير من الحالات على الوجه الحقيقي لمعنى الصيام، حيث تنوعت الشهوات، والرغبات، والأذواق عند الكثير من أفراد مجتمعنا بفعل تأثيرهم بمعطيات الحياة العصرية المتسارعة التي تنشأ نتيجة التأثير بالتطورات في طبيعة السلع والتي تلعب فيها الومضات الإشهارية، وفنون الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة، دور الناقل لمختلف المنتجات من السلع الغذائية فكان رمضان بمثابة الإطار الذي يضم هذه التناقضات المعقدة بمختلف أنواعها. فهذا الشهر، فرصة ومجال لامتلاك قوة ومواجهة لحالة الاستهلاك الشرهة التي تنتاب مجتمعنا في هذا الشهر الكريم وتحقيق التربية الاستهلاكية من خلال القاعدة القرآنية المعروفة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾⁷

وأنه محاولة لصياغة نمط استهلاكي زاهد ورشيد، وعملية تدريب مكثف تستغرق شهراً واحداً إنه بحق بمثابة دورة تدريبية تُفهم أفراد المجتمع أنه بالإمكان أن يعيش دون استهلاك مفرط من خلال ضبط النفس ومقامة الإسراف فالإسراف في كل شيء ممقوت حتى مع السعة، فقد جاء التوجيه النبوي لمن أراد الوضوء بعدم الإسراف في الماء ولو كان على نهر جارو. "إن رمضان تجربة روحية بالغة العمق، تتخلله مقاصد اقتصادية ذات البعد الديني منها البركة والاعتدال في الإنفاق دون إسراف أو تبذير، حيث يتسم بمضاعفة الخيرات وحلول البركات فهو بحق شهر البركة الاقتصادية للأمة الإسلامية، وفي هذا يقول النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): أتاكم رمضان شهر بركة، وأن كلاً من الإسراف والتبذير يسبب خللاً في النظام الاقتصادي والاجتماعي، وقد وصف الله تبارك وتعالى عباده

المؤمنين في كتابه حيث قال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾⁸ إنها حكمة اقتصادية خالدة وقاعدة استهلاكية زاهدة ورشيدة، ومن وصايا الرسول الكريم في مجال الإنفاق أيضا: "ما عال من اقتصد"⁹، لان في عصرنا الحاضر قد غلبت عليه نزعة مادية جارفة، التي أعطت انعكاسات سلبية على الوجه الحقيقي لمعنى شهر رمضان في بروز ظاهرة الاستهلاك المفرط للسلع الغذائية، لا تأخذ في الحسبان الطابع الأخلاقي والقيم الرشيدة لمجتمعنا مما يشكل خللاً بالنسبة للوظيفة الحقيقية لهذا الشهر، التي تتمثل أساساً في التربية الروحية والاستهلاكية للمجتمع. يجب أن يكون رمضان شهر الاقتصاد، لأن نسبة الاستهلاك فيه ينبغي أن تنخفض إلى الثلث باعتبار أن تخفيض عدد الوجبات من ثلاث وجبات في الأيام العادية إلى وجبتين في هذا الشهر الكريم ولكن الذي يحدث عكس ذلك جراء الهاجس النفسي الذي يسيطر على بعض الأفراد "إن الفرد مدفوع إلى إن يراقب بشكل منهجي خلاصه الخاص في سلوكه الاستهلاكي الخاص الذي ينبغي إشباعه بشكل عقلائي"¹⁰ إن العقلانية الهادفة لروح ترشيد السلوك الاستهلاكي الغذائي (الزهد في الاستهلاك) لكل فئات أفراد المجتمع ومنها فئة أساتذة ومعلمي قطاع التربية، هي أخلاق لم تكن واضحة المعالم في شهر رمضان نتيجة غياب ثقافة أخلاق البعد الديني أو "أنساق الأفكار الدينية كنموذج مثالي"¹¹ وعدم فهم معاني الصيام وتفسير أبعاده وترك المجال للمؤثرات والعوامل الأخرى كأنساق مختلفة متداخلة تسيطر على الفراغ والحيز الموجود، وتوجه الفرد الصائم وكل فئات وشراخ المجتمع نحو تحقيق أهدافها، فأصبح الفرد وبالتالي المجتمع بين مجموعة من الأنساق المتفاعلة لم يجد فيها مكانته الحقيقية كفاعل اجتماعي في انتهاج سلوك أخلاقي نحو ظاهرة زيادة الاستهلاك البذخي. حيث لم ينتج المجتمع الجزائري في شهر رمضان نسقا أخلاقياً، لان هناك العديد من المعوقات البنائية لنشوء أخلاق ذات سلوكيات استهلاكية رشيدة تتميز بالزهد تجاه السلع الغذائية، نحو بناء البركة الاقتصادية بالمفهوم الاقتصادي والقناعة الذاتية لسلوك استهلاك الفرد، وإن حالة من هذه الشراهة الاستهلاكية المتنامية في مجتمعنا خلال شهر رمضان، تدل على وجود طفرة في نسق السلوك الاستهلاكي اتجاه السلع ويعكس واقع المسافة بين مبدأ القيم والأخلاق والفعل الاجتماعي لفهم وتفسير واقع الميدان لنسق روح الاستهلاك للأفراد الفاعلين.

إن مجتمعنا في حاجة إلى ضرورة إعادة النظر في سلوكه الاستهلاكي باتجاه تعديلها لتصبح فيما بعد ذات أخلاق استهلاكية رشيدة الإنفاق تتحكم فيها فاعلين عقلانيين اجتماعيين في الواقع الميداني. ومن خلال هذا الطرح في صياغة الإشكال يدفع بنا إلى طرح سؤالاً مركزياً وبعض التساؤلات الفرعية التي تهتم بسلوك يخص الزيادة في الاستهلاك الغذائي في فترة رمضان، لفئة أساتذة ومعلمي قطاع التربية والتعليم بولاية الأغواط، والتي تمكننا من تفكيك عناصر الظاهرة إلى أجزاء يمكن من خلالها الوصول إلى تحليلها وفهمها من خلال تحديد مسار البحث العلمي الخاص بهذه الظاهرة عن طريق "القطيعة والبناء والمعاينة"¹² حسب قول قاستون باشلار، وفي جوهر تفاعله مع نسق البعد الديني لذا :

هل توجد علاقة بين البعد الديني والسلوك الاستهلاكي الغذائي في شهر رمضان لفئة أساتذة ومعلمي قطاع التربية والتعليم ؟

وهل تؤثر درجة الالتزام الديني في السلوك الاستهلاكي الغذائي لهذه الفئة في شهر رمضان ؟

1. الفرضيات:

إذا كانت هذه الإشكالية تستدعي منا طرح فرضيات، يمكن من بينها أن تكون قادرة على وضع حدٍ مقنع لتفاهم الإشكاليات مع مجموعة من التصورات الفكرية والرؤى النظرية على محك الواقع التجريبي العقلائي، "غير أنه وفي حالة ما إذا لم نستطع التنبؤ، فعندئذٍ ستعوض الفرضية بهدف البحث، إنا الحدود الموجودة في العرض المختصر سواء كانت في إطار فرضية أو هدف البحث لابد أن تمتلك بعض الخصائص لتضمن صفتها العلمية كالتيصريح والتنبؤ وغيرها وقد تأخذ إشكالاً مختلفة"¹³. فإنها تتطلب منا بالضرورة وضع حدود لنسق مفاهيمي مستنبط من نظريات للمعالجة من جهة، ومن جهة أخرى تقديم نموذج التحليل للنسق المفاهيمي واقعي واستقرائي يوضح طبيعة الإشكالية وإسقاطها على الواقع، وكيفية استنتاج الحلول من بين التناقضات، والتفاعلات المعقدة فيما بين مختلف الأنساق، وذلك بتحديد طبيعة المجال الخاص والكشف عن إمكانية تواصله مع المجال العام لظاهرة الاستهلاك الغذائي، وعليه اقترحنا هذه الفرضيات :

الفرضية العامة :

توجد علاقة تناسبية بين البعد الديني والسلوك الاستهلاكي الغذائي لهذه الفئة في شهر رمضان.

2. الاتجاهات النظرية في دراسة ظاهرة الاستهلاك:

إن إسهامات منطري علم الاجتماع، والباحثين في موضوع الاستهلاك كان يعنى بالأهمية الكبيرة في نطاق علم الاجتماع مثل المستوى الاجتماعي والاقتصادي، "ويعتبر ماكس فيبر هو الباحث السوسيولوجي الذي أكد أن الواقعة الاجتماعية يمكن أن يسببها أكثر من عامل أو متغير واحد، وأن الواقعة تنتمي في العادة لجمع من المتغيرات ولتأكيد ذلك نجده يذهب إلى القول بأنه إذا كانت الماركسية قد أكدت على المتغيرات الاقتصادية باعتبارها المتغيرات المسؤولة عن ظهور الرأسمالية (الاستهلاك نسق فرعي من النسق الكلي للرأسمالية)، فإنه من الممكن نسبة ظهور الرأسمالية إلى مجموعة من القيم الدينية"¹⁴، فالاستهلاك كعملية اقتصادية يمكن أن نطلق عليها نمط من أنماط الحياة اليومية التي يعيشها الإنسان، فالدراسات المبكرة التي أجراها العديد من الباحثين الأنثروبولوجيين، كشفت عن أن الاستهلاك يمثل جزءاً مهماً من حياة المجتمعات التي قاموا بدراساتها. ولا تختلف النتائج التي توصل إليها الباحثين في نطاق الدراسات الاجتماعية، كثير عما توصل إليه علماء الأنثروبولوجيا، فبداية من التحليلات الكلاسيكية لمنطري علم الاجتماع (ماركس وفيبر وغيرهم) انتهاء بالنظريات ما بعد حادثة، تحتل عملية الاستهلاك بنداً أساسياً في البناء النظري لكل هؤلاء، فالاستهلاك كما يصفه أحد الباحثين هو "المقدمة الضرورية في بناء النظرية الاجتماعية"¹⁵

3. النظرة الكلاسيكية والمعاصرة لمفهوم الاستهلاك من منظرو علم الاجتماع الديني:

■ سوسيولوجيا الاستهلاك:

إن التحليلات السوسيولوجية التي قدمها رواد النظرية في علم الاجتماع، بدءاً من التحليل المادي التاريخي لماركس والرؤية الوظيفية لظاهرة الاستهلاك عند ماكس فيبر وغيرهم والمنافية للتفسير المادي. كما أهمية العوامل الاجتماعية في تأثيرها على نمط الاستهلاك، إذ تقوم بدورا مهماً، ومؤثر في تشكيل نمط الاستهلاك على المدى البعيد وإن كان دخل الفرد يؤثر في النمط على المدى القصير. ولقد كانت الاهتمامات السوسيولوجية

بموضوع الاستهلاك بالشيء الثانوي، ولم يكن الاهتمام به اهتماماً رئيسياً كموضوع مستقل بذاته، بطريقة تعالج من جميع نواحيه، وكانت بداية معالجتها في هذا العالم، حينما تعلق الأمر بدراسة الطبقات الاجتماعية، حيث يعتبر الاستهلاك كمؤشر قوي للدلالة على الطبقة الاجتماعية التي ينتهي إليها الفرد، ويعتبر كذلك كأحد المتغيرات الاقتصادية القابلة لأن تتأثر بالمتغيرات الاجتماعية، وللتعرف على المستوى الاقتصادي للفرد، ما على الباحث إلا التعرف والبحث في حقيقة استهلاكه لمختلف الحاجيات المادية أو المعنوية. إذن في البداية كانت دراسة الاستهلاك بالدرجة الأولى في حقل الاقتصاد أكثر منه في الحقل السوسيولوجي، لكن لا يخفى علينا أن بالرغم من بساطة هذه الدراسات لكي تصبح كلاسيكية الآن هي التي مهدت الطريق لتحول الاستهلاك إلى موضوع هام ومستقل يمكن اعتباره ظاهرة سوسيولوجية، وكان ذلك في بداية الثمانينات حيث انعقد أول مؤتمر متخصص حول سوسيولوجيا الاستهلاك في جامعة آسلو في جانفي 1988، حيث سجل مشاركة العديد من البلدان خاصة المتقدمة منها وقد علق أحد المشاركين على هذا المؤتمر قائلاً: "كانت سوسيولوجيا الاستهلاك حتى وقت قريب مجالاً بحثياً مختلفاً ومشتتاً، ومن ثم فقد كان هذا المؤتمر هو أول محاولة عالمياً تهتم اهتماماً خاصاً في الاستهلاك ولم يكن هدفه هو تأسيس مجالاً مستقلاً بسوسيولوجيا الاستهلاك بقدر ما كان محاولة للفت الانتباه إلى عدد هائل من المشكلات المبريكية والتحليلية متضمنة في موضوع الاستهلاك".¹⁶

ومفهوم الاستهلاك في علم الاجتماع الديني، هو عملية استعمال السلع والخدمات بغرض إشباع متطلبات وحاجيات أفراد المجتمع، أو منظمات إنتاجية.

■ نظرة كارل ماركس ' Karl Marks ' (1818 – 1883) للاستهلاك :

يمكن اعتبار التنظير المادي التاريخي، هو البداية الحقيقية في بحث وتحليل ظاهرة الاستهلاك، حيث جمع ماركس في تصوره لتطور المجتمع بين ما هو اجتماعي وما هو اقتصادي ومن ثم جاء تصوره للتطور التاريخي للمجتمع، مؤسس على تصوره لتطور النظام الاقتصادي لقد تصور ماركس أن الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية تسيران جنب إلى جنب في خط واحد مرسوم، خط يتجه من البساطة إلى التعقيد ومن هنا جاءت تفسيراته لتطور الحياة الإنسانية تعبر عن وجهة نظره في كون المادة (الملكية) أساس النظام

الإنساني والسبب في تطوره، لقد كانت التنظيرات الماركسية حول الاستهلاك بوصفه ظاهرة اقتصادية، لا مثيل لها حسب قول احد الباحثين. ولقد أظهر ماركس الاستهلاك بوصفه "جزء من الثقافة الرأسمالية، أو كوجه آخر ملاصق لعملية الإنتاج الرأسمالية المبني علي تدعيم قيمة الاستهلاك، بغرض الحصول علي أكبر قدر ممكن من الربح، فتعاظم الاستهلاك يعني في النهاية تعاظم الأرباح" ¹⁷.

لقد ركز ماركس في تحليله للاستهلاك علي الاستهلاك الضروري، باعتباره شرطاً أساسياً للمحافظة علي مستوي الإنتاج القائم، وهو استهلاك يتألف من نمطين: الأول، شخصي يحافظ علي بقاء المنتجين واستمرارهم في الإنتاج والثاني استهلاك إنتاجي يحافظ علي وسائل الإنتاج من حيث صيانتها وتجريدها، كما تتحدد العلاقة بين قيم الإنتاج والاستهلاك بنمط تقسيم العمل الاجتماعي ومستوي تطوره، ففي المجتمعات البسيطة كانت هناك وحدة واتصال بين قيم الإنتاج والاستهلاك في إطار قيم جماعية، غالباً بسبب جماعية الإنتاج والاستهلاك، والاتصال المباشر بين المنتجين والمستهلكين، وفي حالات غير قليلة كان المنتجون هم المستهلكون لما ينتجونهم أما في المجتمع الرأسمالي حيث تطور تقسيم العمل، ومن ثم انفصل المنتجون عن المستهلكين وجري التمييز بين وقت العمل ووقت الفراغ، وتطلب الأمر إحلال علاقات تبادل ووجود سوق للعمل وسوق السلع والخدمات ¹⁸. هكذا قدم ماركس رؤيته للظاهرة الاستهلاكية، من نفس منظور التفسير المادي للتاريخي، وهو تفسير تتقارب فيه كافة الأطروحات التي قدمها ماركس في رؤيته عن المجتمع، وتكاد تكون ظاهرة الاستهلاك، الظاهرة التي اجتمعت فيها كافة مقولات الماركسية، أو بمعنى آخر، طرح من خلالها ماركس آراءه العديدة حول الطبقة وعلاقات الإنتاج وغيرها من المقولات الماركسية، ففي تفسيره لأزمة قصور الاستهلاك ذهب ماركس إلي أن الاستهلاك يحدث نتيجة لاستحواذ أرباب الأعمال على نصيب متزايد من الدخل القومي وعملهم على استثمار معظم نصيبهم "وما يؤدي إليه هذا من نمو في الناتج من السلع بشكل مستمر وبمعدلات متزايدة، مما يجعل المجتمع يتعرض للاهتزاز والاضطرابات الاجتماعية التي قد تقلب كيان المجتمع" فكيف له أن يستهلك هذا الناتج وليس لدى غالبية أفراد من العمال الأجراء القدرة على شراء متطلبات الحياة بسبب عدم العدالة في توزيع الدخل ¹⁹. ومن هنا يرى ماركس أنه لا بد

من دفع القوة الشرائية للعمال حتى تستطيع أن تزيد من الاستهلاك وحتى لا تحدث أزمات وإفراط في الإنتاج، لذلك يرى ماركس أن الاهتمام بالاستهلاك لا يقل أهمية عن الاهتمام بالإنتاج فالحقيقة أنها متكاملان، "فالإنتاج تتمثل مهمته الأساسية في خلق السلع اللازمة للاستهلاك في حين أن الاستهلاك تكون مهمته الأساسية خلق الحاجات بمعنى الغرض من الإنتاج"²⁰ وفي ضوء ذلك انتقد ماركس النظرية التقليدية التي استبعدت الاستهلاك كمتغير اقتصادي بافتراض وجود تطابق دائم بين الإنتاج والاستهلاك. غير أن ماركس يرى أن عملية توزيع الناتج تخضع لظروف وأوضاع اجتماعية تؤدي إلى نقص الاستهلاك في الوقت الذي تؤدي فيه الظروف والأوضاع الاقتصادية إلى تضخيم الإنتاج. وفي النهاية القول يمكن القول أن الاستهلاك كمتغير اقتصادي قد احتل مكانة هامة في التحليل الماركسي للنظام الرأسمالي ففائض القيمة ومحاولة زيادته يؤدي إلى نقص الاستهلاك وحدوث أزمات إفراط الإنتاج عامة والسبب راجع إلى سوء توزيع الناتج من العمال والرأسماليين ويجعل العمل على الاستهلاك منخفضاً وذلك من خلال انخفاض دخولهم بالإضافة إلى انخفاض طلب الرأسماليين عن الاستهلاك لانخفاض ميلهم إليه. فالاستهلاك إذن ليس كافياً لمواجهة الإنتاج المتزايد، بل أنه يتناقض بمعدلات سريعة، وذلك كنتيجة للآثار المترتبة على زيادة التراكم الرأسمالي من فائض القيمة، وهو ذلك يعد سبباً لحدوث الأزمات الاقتصادية التي يتعرض لها النظام الرأسمالي والتي تؤدي إلى انهياره في النهاية.²¹

■ نظرة ماكس فيبر 'Max Weber' (1864 - 1920) للاستهلاك :

إن المفكر والعلامة الألماني ماكس فيبر يعتبر من أبرز علماء مدرسة العلاقات الاجتماعية ومن الأوائل الداعين لدراستها دراسة تحليلية والبحث عن التأثيرات والأسباب المتبادلة بين النظم الاجتماعية الوظيفية وخاصة الدينية والاقتصادية والسياسية، ودراستها في صورتها المجردة عن طريق الفهم والتفسير لسلوكيات الأفراد، لان العلاقات تنتج انطلاقاً من أفعال الأفراد بعضهم ببعض، وبالتالي تنتج مظاهر تترجم هذه السلوكيات المتوقعة وخلافاً لوجهة النظر الماركسية هناك تنظير آخر انطلق في رؤيته لظاهرة الاستهلاك، من وجهة نظر مخالفة لمقولات المادية التاريخية فإذا كانت الماركسية انطلقت في تفسيرها لظاهرة

الاستهلاك من مقولات المادية التاريخية فإن الوظيفة الوضعية انطلقت من أبعاد أخرى مخالفة تماماً، وها هو ماكس فيبر يؤكد علي أن القيم والأفكار تؤثر بشكل أساسي في تشكيل الإنتاج والاستهلاك والسلوك الاقتصادي المترتب عليها، على أساس أن الأفكار والمعتقدات لها دورا فعالا في تاريخ الإنسان، خصوصا تاريخ التطور الاقتصادي، فيبر يرى "أن عالم القيم تخلقه الظروف الاجتماعية التاريخية، لأنه يرى أن القيم اختيارات فردية حرة مشروطة بشروط اجتماعية تاريخية تحدها أفكار الجماعات الاجتماعية وتصوراتها المتباينة"²².

ولقد كان ماكس فيبر اهتمامه بالاقتصاد كرد فعل لفلسفة هيجل وماركس في دراسته التحليلية العقلانية لسلوكيات أفراد المجتمع الاقتصادية العامة، والاستهلاكية الخاصة موجهة بدوافع قيمة التي تدفع بالسلوك إلى الظهور أي بمعنى "أنه لا يكفي أن نبرهن أن هناك ظروف اجتماعية معينة تؤدي إلى تنظيم اقتصادي معين، بل يجب أن نبرهن أيضاً أن هذه الظروف تنبثق عنها موجات قيمة تدفع الناس إلى سلوك معين بطرق مختلفة يعبر عنها التنظيم الاقتصادي النموذجي"²³. ولقد أشتهر ماكس فيبر بدراسته عن الرأسمالية وعلاقتها بالدين حيث اشتهرت أغلب دراساته بالطابع الاقتصادي، واهتم بالفعل الاجتماعي وأسبابه عن طريق التحليل البنائي الوظيفي. واهتمامه بظهور الرأسمالية في أوروبا التي جاءت عقب حركة الإصلاح، وفي عصر النهضة التي تميزت به الأخلاق البروتستانتية والكالفينية على وجه الخصوص. ولقد حدد ماكس فيبر "النظم الاقتصادية كأنماط ونماذج بعد دراسة الفعل الاجتماعي لها والمنهج الصحيح إلى فهم الظاهرة الاقتصادية بصفة عامة وظاهرة الاستهلاك بصفة خاصة فهماً صحيحاً من خلال التعرف على الأسباب (السببية) التي تؤدي إلى التعميم بعد الملاحظة الدقيقة والتتابع الترتيبي بالطريقة الإحصائية العلمية"²⁴ في دراسة الاستهلاك أو طرق المقارنة بين العوامل في الظروف التاريخية. وهذا ما يوضحه في كتابه عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، حيث يذهب إلى أن روح الرأسمالية الحديثة هي فعاليات عقلانية داخل التنظيم بالانضباط لتحقيق النجاح النابع من "الأخلاقيات البروتستانتية التي تؤكد على أن الحياة الأخرى هي الأساس، وأن الخلاص في الحياة الأخرى هو شيء مقدر من الله، وأن النجاح في الحياة الدنيا يؤدي حتماً بالأشخاص إلى

النجاح في الحياة الأخرى كدليل يجعل الأفراد منضبطين ومنظمين في حياتهم من خلال الأخلاق البروتستانتية، كعامل ديني يحث على الزهد والتقشف عند الاستهلاك في الحياة الدنيا²⁵. ومنه لا يمكن للظواهر الاقتصادية والاستهلاكية وحدها أن تضمن تطور أو تغير دون وجود عامل داخلي يهيئ الفرد نفسياً واجتماعياً لان يقوم بشيء من هذا القبيل إلا بتقبل الأفكار والقيم التي تدفعه أو تمنعه من القيام بهذا العمل والتي تنسجم مع القيم الدينية في الاستهلاك مثلاً. وهو عبارة عن فعل اجتماعي، والذي يقتضي منهج النموذج المثالي كنموذج عقلائي يستعمل كأداة في البحث والتحليل بتحديد المفاهيم المكونة لظاهرة الاستهلاك كنموذج في الاقتصاد في تفسير الظاهرة الواقعة. إن فير "يذهب إلى أن هناك علاقة بين الفهم أو التفسير القائم على الأسباب والفهم القائم على المعاني، فلكي نفسر أي فعل من الأفعال لا بد أن نفهمه على أساس معناه وعلى أساس أسبابه وفقدان عنصر واحد يفقدنا التفهم الحقيقي للفعل مهما كان كفاءة المعلومات الإحصائية التي استعملناها في بحثنا. ولكن ليس من الممكن دائماً الجمع بين فهم المعاني وفهم السبب عندما نحاول تفسير اجتماعي للظواهر أو للأفعال. فكثيراً ما يحدث أن يأتي الأفراد بتصرفات أو يسلكوا سلوكاً لا يعرفون معانيه ولا يعلمون بمضامينه، وقد يأتي الفرد بأفعال بدون أن يدري ما تنطوي عليه هذه الأفعال، خاصة عندما تمارس الأفعال التقليدية أي الأفعال التي يقوم بها بحكم العادة والتقاليد الاجتماعية السائدة، أو قد تأتي بأفعال عاطفية وقوية قد لا نفقه نحن معناها أو مضامينها"²⁶. ويمكن أن تكون ظاهرة الاستهلاك المفرط للسلع الغذائية من بين هذه التصرفات والسلوكيات التي لا يعرف الفرد معناها. وكذلك في كتابات ماكس فير في علم الاجتماع الديني، "حيث درس علوم تاريخ المجتمعات بنفس المناهج النظرية السابقة في معالجته بمنهجية مخالفة عند دراسته للرأسمالية الكالفينية والاعتقادات الهندية والظواهر الواقعية كحلول للمشاكل المعاكسة بين الخير والشر وهذا بإرادة الله"²⁷. وهكذا نلاحظ أن فير في مشوار بحثه استعمل عدة مفاهيم خاصة به في تحليل وتفسير الظواهر ابتداء من "العقلانية والنموذج المثالي والفهم التفسيري ومنهجية الفردانية والتحليل المتعدد الأسباب والتوجيه انطلاقاً من النتائج أو القيم الحقيقية والعلاقات المتعلقة بالقيم ومحاربة الجماعة والجمعيات في التنظيم والشخصية"²⁸. هذه المفاهيم قوية في تحليل الظاهرة علمياً وخاصة عدم

إيمانه بالسبب الواحد للظاهرة، وإنما بتعدد الأسباب ويمكن أن يكون إحداها قوي يأخذ نسبة أكبر من الأسباب الأخرى. وبما أن ماكس فيبر اعتمد عند تحليلاته في تفسير الظاهرة الاقتصادية بصفة عامة، ونشؤ الرأسمالية إلى أسباب دينية فهو الأقرب في اعتقادنا على مفاهيمه، لأن ظاهرة الاستهلاك في رمضان أقرب للتناول الفيبري نظراً لأن رمضان هو شهر عبادة دينية، والاستهلاك خلاله ظاهرة اقتصادية، وظهور التغير في الاستهلاك الغذائي خلال هذا الشهر يجعل من الباحث أخذ كل الأسباب بعين الاعتبار والاعتماد أكثر على السبب الأقرب والأكثر تأثير في الظاهرة لأن الارتباط قريب من البعد الديني، وأن فيبر من أكبر المفكرين في إيجاد العلاقة بين الدين والاقتصاد.

■ نظرة إميل دوركايم 'Emil Durkheim' (1858 - 1917) للاستهلاك :

أما إميل دوركايم، فقد قدم هو الآخر رؤية، تقترب إلى ما قدمه فيبر، وتأتي على النقيض تماماً من الرؤية الماركسية، حيث انتقل دوركايم من الخضوع الميكانيكي لقيم الإنتاج والاستهلاك إلى الاختيار العقلاني لها، فهو علي عكس ما ذهب إليه ماركس، "فالقيم الاجتماعية من وجهة نظره محددة لوجود الناس وما بينهم من علاقات اجتماعية، كما أنها مكونة للضمير الجمعي فالقيم الأخلاقية تحتل مكانة بارزة من حيث أدوارها ووظائفها في المجتمع، فهي تؤثر في غيرها من القيم الاجتماعية وتوجهها، بما في ذلك قيم الإنتاج والاستهلاك، فالمجتمع في إجماله ظاهرة أخلاقية معيارية قيمة، والإنسان بطبيعته أخلاقي، لأنه يعيش في مجتمع تتغير قيمه من خلال التغير من نمط التضامن الآلي إلى نمط التضامن العضوي، وهو تغير يرتبط بعناصر مادية لها تجسدها الخارجية عن الأفراد، مثل تقسيم العمل والاستهلاك والجريمة والانتحار والطقوس والاحتفالات".²⁹ ولقد حاول دوركايم في كتابه الأشكال الأولية للحياة الدينية، "أن يدرس الدين باختياره قبائل أسترالية نظراً لبساطة مجتمعاتها، بلور دوركايم نظريته الأساسية في تفسير الدين، بأن الأفكار والأفعال الدينية ترمز إلى الجماعة الاجتماعية، وأن في كل الأديان يوجد المقدس وغير المقدس والمقدس يشير إلى المعتقدات الدينية والطقوس وكل من هي ذات طابع ديني وهو أساس الإلزام الاجتماعي. لا بد من احترامه وهي ضغط اجتماعي وقوة قاهرة فهي تتميز بسلطتها التي تفرضها من الخارج على الأفراد، ولا يشعر الأفراد بهذه السلطة إلا عندما يحاولون

مخالفتها حينئذ يتعرضون لعقبات وموانع أو يقعون تحت طائلة الجزاء أو الأدبي أو سخرية الرأي العام وقمته وهنا قصد دوركايم إلى أن يبين سلبية موقف الفرد بالنسبة للمجتمع "30. ولقد أكد دوركايم في كتاب الانتحار بأنه "لا يرى في أي مكان آخر قوانين العدالة المنتشرة والمستعجلة وغير المثلة في تنظيم آخر، فالديانات قديماً كانت جزءاً لها دور مكلف، والتي أصبحت الآن غير مناسبة، لان المبدأ الأساسي في هذا التنظيم يمكن من خلاله وضع الحياة الاقتصادية، وهو ازدهار الثروة."31 وهل من الممكن أن يكون دوركايم قد أعطى تفسيراً لظاهرة الاستهلاك من منطلق ديني .

■ نظرة جورج زيمل G. Simmel (1858 - 1918) للاستهلاك :

إن المفكر جورج زيمل، من أصحاب الاتجاه الاجتماعي التحليلي في النظرة التعميمية المسبقة للمدرسة الصورية الشكلية للمدرسة الألمانية للعلاقات الاجتماعية التجريدية، "والذي يرجع إليه الفضل في تقسيم علم الاجتماع إلى ثلاثة فروع أساسية، وهي الاجتماع الصوري الشكلي والاجتماع العام والفلسفة الاجتماعية، وتفرع وظائفها فعلى سبيل المثال فإنه قد تتجسد العلاقات الاجتماعية عند زيمل في صورتها الملموسة على شكل منافسة أو تعاون في المجال الاقتصادي ومهمة النظرية الاجتماعية عزلها وتجريدها عن تجسدها المادية المظهرية"32. فإنه اهتم بالجانب الاقتصادي أكثر في الحياة الاجتماعية .

■ نظرة عبد الرحمان ابن خلدون 'Iben-kheldoun' للاستهلاك :

لقد كان المفكر الاجتماعي الكبير عبد الرحمان ابن خلدون من الأوائل الذين تكلموا وتقدموا فأفكار عن الاقتصاد والتجارة والإنفاق والاستهلاك واختلافها بين البدو والعمران (الحضر) حيث أشار إلى أن تداخل النشاطات التجارية وأنواع الصناعات داخل العمران الحضري تعطي تطور مالي واقتصادي، ويزداد الطلب على السلع والإنتاج ويكثر العرض في الأسواق والتنافس في الصناعة، وبالتالي ينتج الزيادة في الأسعار على السلع ويصبح مجال الإنفاق واسع كلما ازداد العمران في الأمصار (المدن) بدافع المكوس وضرائب السلطنة، عكس البدو والأرياف أين تكون نشاطات الفلاحين، حيث يصبح الفرد محتكراً لإنتاجه مهما كان نوعه نظراً لعدم وجود الأسواق وبالتالي تنخفض الأسعار، حيث يقول في كتاب المقدمة "اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس: فمنها الضروري

وهي الأقوات من الحنطة والشعير وما معناهما...والبصل وأشباهه.ومنها ألحاجي والكمالي مثل الادم و الفواكه...الح. فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وعلت أسعار الكمالي من الفواكه وما يتبعها وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك . والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته، فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه، ولا بد من ذلك. وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلا كثيرة، تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك، فترخص أسعارها في الغالب إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية. ولولا احتكار الناس لها يتوقع مع تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران. " 33. هنا يوضح ابن خلدون أن الحاجيات الضرورية للعيش يزداد عرضها في السوق بحكم أن كل فرد يحتاج إليها، وبالتالي ينخفض سعرها في البلدان ذات العمران الكبير على غرار الكماليات الذي وصفها في وقته بالفواكه والتي أصبحت عند الكثير من الناس في وقتنا هذا من الضروريات خاصة في رمضان، نظراً للتطور وأصبحت هناك منتجات جديدة مصنعة وشبه مصنعة غالبية الثمن من الكماليات مثل أنواع المشروبات رفيعة المذاق وغيرها من السلع الجديد الناتجة عن التطور الغذائي. كما يصف ابن خلدون الكماليات في الأمصار (البلدان) من الادم و الفواكه وما إليها أنها لا تعم كل الناس الموجودون في المدينة و " إذا كانت المدينة مزدحمة بالنشاطات المعقدة و يكثر بها العمران، ويتسع أكثر وأكثر، تكثر فيها أمور الترف، وبالتالي تصبح قبلة لطلب الكثير بالزيادة من تلك المرافق وينتج بذلك انخفاض الموجود أي السلع وبالتالي يصبح هناك نقص في هذه الحاجات، ويزداد الطلب عليها أكثر ومن ثم وبسبب أهل الترف و ألفة بالإسراف في الغلاء حاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع الغلاء كما نراه ". 34 هذا الوصف الدقيق لعالم الاجتماع ابن خلدون عن قيمة الطلب والعرض للمنتجات من السلع الضرورية والكمالية، وكيف يزداد ثمنها، كلها تحت نظام اقتصادي متكامل فيه فاعلين يؤثرون على عدم استقرار ثمن السلع والحاجات إليها سواء كانت ضرورية أو كمالية، وبسبب هو أهل ألفة والترف والإسراف والتبذير يصبح

الإقبال على بعض من أنواع السلع بكثرة، وبالتالي الزيادة في أسعاره، في المناسبات في الأعياد وخاصة في رمضان، هؤلاء الفاعلين لا بد وأن لهم قيم وأخلاق يحملونها عن بعدا ديني لم يكونوا في مستواه. وهل يمكن أن يكون أهل البادية أقل إسراف وترف في الإنفاق والاستهلاك من أهل المدينة في الأيام العادية أو حتى في شهر رمضان المعروف بزيادة الاستهلاك ؟ لقد تكلم ابن خلدون عن المناطق التي يكثر فيها الترف وتزداد فيها أسعار المبيعات، والمناطق التي تقل فيها عوائد الترف في المعاش. حيث ذكر في المقدمة، "أن المدن الكثيرة العمران يكثر ترفها، وتكثر حاجات ساكني المدينة نظراً لما تدعو إليه هذه المناطق الحضرية، ويصبح الكثير منها ضروري ومرافقها غالية، بازدهام الأغراض عليها من أجل الترف والمغامر السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات تعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه. ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ إلى الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشه وسائر مؤنهم. والبدوي لم يكن دخله كثيراً إذا كان ساكناً بعيداً عن الأسواق ولا يستطيع العيش في المدن لغلاء مرافقه، وهو في بدوه يسد خلته بأقل الأعمال، لأنه قليل عوائد الترف في معاشه، فلا يضطر إلى المال. وكل من يتشوق إلى السكن في المدن من أهل البادية سريعاً ما يظهر عجزه إلا أصحاب المال منهم، ويصبح من أهل المدينة وعاداتهم و ترفهم "35. كما يؤكد ابن خلدون على أن لكل مستوى اقتصادي طبائعه وأخلاقه، "فالبدو بصورة عامة أقرب إلى الشجاعة والعصبية والأخلاق الحميدة، والحضر أقرب إلى الرفاهية وأبعد عن الخلائق المحمودة. فيعلل الرفاهية الاقتصادية بالوفرة الإنتاجية في المدن والعمران، وتنطوي دراساته الاقتصادية على بعض الأسس والمفاهيم التي تتضمنها القوانين الاقتصادية المعروفة بقوانين العرض والطلب في علم الاقتصاد، والتي تعالج مستويات أسعار الحاجيات وفقاً للمطلوب منها والمعرض في الأسواق التجارية المتبادلة. ويشير إلى أن أسعار الحاجيات الضرورية ترخص في بعض البلاد الكثيرة السكان كما سبق ذكره على حين ترتفع أسعار الحاجات الكمالية "36، كما ينوه ابن خلدون بالفروق الاقتصادية بين مستويات النفقات في المدن عنها في القرى. وأوضح ابن خلدون بأن المدينة معقدة بعمرانها، ويزداد فيها الإنفاق والاستهلاك، وغيرها من الحاجات الضرورية والكمالية، معنى ذلك أنه

قليل الزهد في الاستهلاك الغذائي أما أهل البدو فيتمتعون بالبساطة والقليل من الإفراق ومظاهر الترف والتعقيد، ولا تناسبه المدينة لأنه في البدو يزهد في الاستهلاك لان مداخله بسيطة على غرار الحضري التي ظروفها المعقدة تجعل من الفرد أكثر استهلاك وترف وإسراف. وهكذا أرجح الاستهلاك والترف والإسراف لعوامل في العمران الحضري .

■ نظرة جون - بول شارني 'Jean-Paul charnay' للاستهلاك :

من وجهة نظر جون - بول شارني Jean-Paul charnay تجاه الدين الإسلامي والاقتصاد بصفة عامة والاستهلاك بصفة خاصة أن "الإسلام سوسيولوجياً يتكون من نظام متكامل، حيث يؤكد على الدعوة للالتقاء بالتواجد الفردي والجماعي لأفراد المجتمع"³⁷. ولقد أكد في اتجاهاته الفكرية لعلم الاجتماع الديني أن الإسلام " وضع النظام القائم بتحليل ثانوية لمجموعة كبيرة من الأدوات الممثلة الآن والمنتشرة التي أعطت أعظم وأجود الحلول كنتائج للمشاكل بطرق متعددة الأنظمة، ممياً بروح السيطرة السوسيولوجية للأديان وارتباطاتها مع المجالات الأخرى المشتركة من الإسلام الممثلة في الفعل الإسلامي والقانوني والسوسيو- سياسي المعروفة بعلم الإسلام الكلاسيكي . "³⁸. ولقد تناول شارني " الخلل السوسيو - اقتصادي الموجود، على أنه تعرجات أخرى مجسدة في كتاب السلفيين انضمام العائلات الكبرى والتي تربط بين شعوب القرى والزوايا إلى القوات المستعمرة، ساعد على التأثير على المصلحين الأبطال للعروبة الأصيلة وبالتالي تفرق العرب القدامى الأصليين والمرابطين في القرى المجاورة على تفكيك النظام العائلي الشيعي المشترك القديم قدم التضامن القبائلي. ولا بد من ذكر أن السلفيين كانوا يسعون جاهدين في عدم استقرار الهياكل القديمة التي والتي هي كذلك ملاحقة من طرف الاستعمار، حيث أرادوا أن يرسخوا ثقافة وأخلاقيات كانت بموازاة طلبات واحتياجاتهم الاجتماعية، وذلك بالمرور انطلاقاً من نخبة حضرية إلى العائلة النووية. وأن انتشار الممتلكات المالية الخاصة للبرجوازيين والوظائف المستقلة الحرة لبرجوازية الأعمال. وبمجرد مثلاً إعطاء ترقية التطور الاجتماعي للفرد، وهو أحد أكبر المواضيع تأثيراً للسلفيين والتي تساهم في إعادة إعطاء قوة للقواعد الإسلامية القديمة التي من خلالها يجب على المرأة أن تهتم بنفسها وتنعم بالخيرات التي منحها لها القرآن الكريم وذلك من أجل إضعاف النظام المسير. غير أن هذا التطابق

بين حصر العائلة والاستغلال الفردي للتراث كان له الأهمية الكبرى بالنسبة للطبقة الحضرية التي تملك الأراضي وتمارس كذلك أعمال التجارة، وتتدخل في الإدارة و تنكيف معها وتشاركها في النظام الاقتصادي السائد وهو الرأسمالية الحرة. 39 وهنا أراد جون - بول شارني توضيح كيف هو التنافس الحاد بين السلفيين الإسلاميين والقبائل القديمة والمستعمر حيث أظهر "أن هناك سبب آخر للصدام مجدداً على السلفية، هو أن الرأسمالية الحرة مضبوطة وخاصة الظواهر التجارية الحرة للأفعال الفردية المنافسة، حيث طرحت جدلاً مطول وفتاوى كبيرة بالإيجاز الاستعمال في هذا المجال أو لا حول شرعية فتح مثلاً الصك المالي، أو فتح رصيد بنكي، أو حول أي شكل من أشكال الفوائد أو طلب أي سلفة بنكية أو حتى المشاركة." 40 لقد ظهر هنا كيف هو الدور في التعامل مع هذه الأنواع من الحركات الاقتصادية وخاصة التجارية والتعامل مع الأنظمة البنكية، لذا نلاحظ هنا التركيز على أنها " تنظم على الأقل أطر مبنية على الأخلاقيات خاصة بالنسبة للأعمال الاقتصادية والمبنية على المسؤولية والأولوية الفردية حيث تسمح في كل مرة على الثراء في العالم المعاصر مع طمأنينة في العقل، وهذا على تماشياً ووجود الأخلاقيات الإسلامية، على العكس من التحركات السلفية، حيث تلاحظ كثيراً وعلى الأقل ثاني مظهر للنظام الاقتصادي السائد للرأسمالية الحرة، والتي تتشكل في تراكم غير فردي ولكن في شكل جماعي للرأسمالية، حيث القوة الاقتصادية الحقيقية تفوق إمكانيات الثراء المالي الفردي، وتنتج عنه نقطة القوة من طرف المؤسسات الكبرى (بنوك مصانع، شركات التأمين ...)، ثم من طرف الرأسمالية، غير أن أعمال القوة المالية الجديدة ليست في العموم موجهة من طرف فتاوى السلفيين بل هي مرتبطة مع أخلاقيات شخصية." 41 وهنا أراد شارني أن يعطي نظرة عن طبيعة المنافسة الاقتصادية الخاصة منها التجارة والرأسمالية الحرة الفردية وذات الطابع الجماعي في الإسلام، وما هو دور السلفيين الإسلاميين والزوايا والقبائل القديمة المتواجدة في مناطق المغرب العربي. كذا طرح علماء ومفكري النظرية الاجتماعية الكلاسيكي رؤيتهم لظاهرة الاستهلاك، وهو طرح يوضح التحول الذي حل بالبعد الاقتصادي وحياة الأفراد المعيشية للاستهلاك وكان ماكس فيبر الأقرب في ربطه للعلاقة بين التطور الاقتصادي والدين.

■ نظرة توكفيل 'Tocqueville' (1805 - 1859) للاستهلاك:

إن المفكر السوسيولوجي توكفيل كان من أبرز المحللين في الفكر الاجتماعي وخاصة السياسي منه، حيث بأبحاثه توصل إلى أن تطور المجتمعات ككل كان بالممارسة السياسية ولم يكن نتيجة للظواهر الاقتصادية. وهذا يدل على تركيزه على الجانب السياسي أكثر منه اقتصادي، ولكن ليس معنى هذا أنه لم يهتم بالظواهر الدينية حيث اهتم بتحليل الدين والتغيير الاجتماعي، وأكد على استمرار الدين وكيفية وجوده وتبلوره في تطوير المجتمعات المعاصرة التي تطبق السياسة الرشيدة، وأوضح بأن المجتمع الذي يطابق بين الدين والسياسة في تطور الديمقراطية هي الدولة الأمريكية. وقال في الجانب الديني على نفسه أنا لا أمارس الشعائر الدينية ولكنني مؤمن، وبذلك فهو يولي اهتمام كبير للدين في المجتمعات، حيث يؤكد بأن رأس مال الأخلاق الحديثة يرجع إلى المسيحية وكذلك قال على نفسه أنه يتبنى أن يخوض المجالات الواسعة للسياسة حتى يستطيع أن يصلح بين الدين والحرية. كما أن هناك بعض المفكرين الاجتماعيين والاقتصاديين المعاصرين الذين اهتموا بظاهرة الاستهلاك بعد التطورات الاقتصادية التي شهدتها المجتمعات خاصة منها الدول المتطورة ومن بين هؤلاء المفكرين نذكر:

■ نظرة ثورتشاين فيبلن ' Thorstein Veblen ' لمفهوم الاستهلاك:

لقد حظيت ظاهرة الاستهلاك باهتمام مفكري علماء الاجتماع المعاصرين، من هؤلاء المفكرين " ثورتشاين فيبلن والذي أكد على أن العوامل الاجتماعية تلعب دور مهم في تحديد نمط الاستهلاك حيث ركز على مجموعة من العوامل تكمن وراء الحاجات الضرورية وتحديد طبيعة الطلب، " فعلى سبيل المثال أغنياء المجتمع ينفقون بثروتهم على نحو يرمز لوضعهم الطبقي لتمييزهم عن بقية أعضاء المجتمع. "42 غير أن فيبلن لم يضع أفكاراً بطريقة منظمة، "إلا أنه كان من أكثر من اهتموا بإبراز أهمية العوامل الاجتماعية في تحديد نمط الاستهلاك "43 وعلى هذا فإن الاستهلاك المظهري عند فيبلن هو الاستهلاك المفرط للسلع التي تعد دليلاً على عضوية المستهلك للطبقة المترفة في المجتمع الرأسمالي. وقد استخدم فيبلن هذا المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات قبل الرأسمالية

للإشارة إلى التباهي باستهلاك السلع بهدف اكتساب الهوية". 44. فبعض الناس يشتركون بعض السلع غالية الثمن ليس لأنها أجود من غيرها، أو لأنها تشبع حاجة بل لأنها غالية فحسب وهو ما يعنى "التباهي بها أمام الناس". 45.

وهذا يوضح لنا اختلاف الوظيفة الظاهرة للاستهلاك الاقتصادي وهى الانتفاع بينما يعد تحقيق الهوية، وتأكيدا على حد تعبير فيبلن أحد الوظائف الكامنة لهذا الاستهلاك. 46.

■ نظرة العالم " لينيت باليرت ". لمفهوم الاستهلاك:

إن الإعلانات تشغل معظم الناس وخاصة في أوقات فراغهم، مما أدت بطبيعة الحال إلى تزايد القدرة الاستهلاكية من خلال اقتناء، أو رغبات في منتجات جديدة تخلق باستمرار عن طريق الإعلانات بزيادة الوقت الذي يقضى في مشاهدة برامج التلفزيون، خاصة النساء والأطفال يقضون وقتاً طويلاً وهم يشاهدون برامج التلفزيون أكثر مما يفعل الرجال والشباب وبالتالي ينعكس هذا على المجتمع ككل: المحاكاة والتقليد، في ضوء ذلك يقول العالم لينيت باليرت: أن معظم المستهلكين غالباً ما يكونون من النساء، فهو يرى أن النساء يتأثرن أكثر من غيرهم بالإعلانات فضلاً عن أنهن تقمن بالخدمة في المنزل، ويحتفظن بالبضائع، والطعام ويرعين الأطفال . ويلاحظ أن دور النساء دور خدmi منتقد ويتحدى الاستهلاك في المجتمع الحديث، من خلال أنواع من السلوك ناتج عن احتياجات في تشكيل اتجاهات المرأة وسلوكها يؤدي إلى تعميق اتجاه النساء والشباب والأطفال نحو زيادة الاستهلاك ويرجع ذلك إلى الإعلانات وبرامج التلفزيون. 47. إن نمط الاستهلاك الغربي بدأ في الانتشار في مختلف دول العالم وخاصة العالم الثالث، وهذا مرتبط بالتطورات التي طرأت على وسائل الاتصال الجماهيري، خاصة فيما يتعلق بالمادة الإعلانية التي تبثها وسائل الإعلام مما أدت إلى زيادة الاستهلاك بشكل كبير أكثر من انخفاض الأسعار وساهمت في خلق نوع من " الفجوة الاستهلاكية " بين الأفراد مما زاد الإنفاق الاستهلاكي على مختلف السلع والمنتجات عبر البرامج التي تطرحها المؤسسات العالمية من خلال هذه الإعلانات.

في إطار كل ذلك يصبح التساؤل حول قيم الاستهلاك في ظل الثورة الكونية في مجال تكنولوجيا المعلومات، سؤال طبيعي، تفرضه الظروف التي تمر بها المجتمعات سواء على المستوى الدولي أو المحلي، تلك القيم التي ترتبط بشكل وثيق بالمجتمع الذي تتشكل من خلاله، فإذا كان هذا المجتمع هو بذاته في حالة تغير وتطور وتحول كبير، في ظل التحولات العالمية، تفرض نفسها وبقوة، فإن البناء القيمي الخاص بالاستهلاك، يصبح هو الآخر عرضة للتحويل والتبدل. هكذا طرح علماء ومفكري النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والمعاصرة، رؤيتهم لظاهرة الاستهلاك وهو طرح يوضح التحول الذي حل بالبعد الاقتصادي وحياة الأفراد المعيشية للاستهلاك وكان ماكس فيبر الأقرب في ربطه للعلاقة بين التطور الاقتصادي والدين.

4. مفهوم الاستهلاك :

إن الاستهلاك عبادة وطاعة من الطاعات الله، فكما هي أوامر العبادات والمعاملات كذلك أمر الاستهلاك والإنفاق، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ 48. فالإسلام يحث على الاعتدال والتوسط في الإنفاق والاستهلاك، وينهى عن الإسراف، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ 49 ويحرم التبذير حيث قال عز وجل: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ 50، وبين القرآن منهج عباد الرحمن بأنهم أصحاب توسط بلا تفريط ولا إفراط، حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ 51. يتحدد مستوى الاستهلاك والإنفاق على النفس والعيال والمحتاجين بالقدرة المالية للشخص فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولا يجوز أن يشتمل الاستهلاك على محرم، سواء كان ضرورياً أو حاجياً أو تحسينياً. وكذلك في هذا الموضوع نقرأ عدداً من الأحاديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: {مَا شَبَّحَ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ} 52. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: {مَا شَبَّحَ آلُ مُحَمَّدٍ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلَاثَ

لِيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قَبِضَ {53. وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: {كُنَّا عِنْدَ أَنَسٍ وَعِنْدَهُ خَبَازٌ لَهُ، فَقَالَ: "مَا أَكَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُبْزًا مُرَقَّقًا، وَلَا شَاءَ مَسْمُوطَةً (أي مشوية) حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ}. {54.

5. مفهوم شهر رمضان:

شهر رمضان، هو شهر القرآن لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾. {55 وإن شهر رمضان هو شهر العبادة بحيث يتقرب الفرد الصائم المسلم إلى الله أكثر بالعبادة والطاعة، لان هذا الشهر يتميز بشعيرة دينية ألا وهي شعيرة الصيام، ومعنى الصيام في الإسلام هو الامتناع والإمساك عن الأكل والشرب خلال النهار حتى الغروب عند آذان المغرب، ويكون الفرد في المجتمع الإسلامي صائم بكل جوارحه وليس الامتناع عن الأكل والشرب فقط . وإن مفهوم شهر رمضان هو العبادة بالامتناع عن الأكل والشرب، وهنا يصبح مؤثر الغذاء له أهمية كبيرة عند الفرد الصائم وتدخل عدة عوامل مؤثرة على الاستهلاك الغذائي ويتجسد عند الصائم المعنى الحقيقي للجوع والمغزى من الصيام عند الله هو التقرب إليه بالطاعة حسب الضوابط الشرعية للدين الإسلامي، وبالتالي نستطيع أن نرى هذا الربط المباشر بين العامل الديني والامتناع عن الأكل، في إطار العبادة والتقرب إلى الله عز وجل بالصوم والإمساك عن الأكل بانخفاض نسبة الاستهلاك الغذائي في شهر واحد في السنة من ثلاث وجبات أو أكثر في بعض الأحيان في الأيام العادية إلى وجبتين في شهر رمضان للإحساس بحق الفقراء والمحتاجين، حتى يصبح الفرد ورع وطيب وحنون متصدق يحث إلى الخير مانع للشر يساعد الآخرين.إذاً مفهوم شهر رمضان هو ذو بعد ديني أي شهر العبادة عن طريق شعيرة الصيام والالتزام بباقي الشعائر الدينية المرافقة لها حتى تكتمل هذه العبادة الممثلة في صيام شهر رمضان.

مفهوم الصوم:

يعتبر الصوم مفهوماً دينياً وهو عبارة عن "عبادة تخص كل الديانات، بما فيها الوثنيين حيث صام اليونانيون والرومانيون وأهل مصر القدماء، وكذلك اليهود والنصارى ويعتبرونه عبادة جليلة " {56. والصوم في الإسلام، هو " الامتناع عن الأكل والشرب من طلوع

الفجر إلى غروب الشمس والإمساك عن الغوا والابتعاد وعن كل ما حرم الله عز وجل طوال النهار والليل، وذلك لتهديب النفوس وتدريبها عن الكف عن الشهوات، أو أن يبيأ النفس للتقوى، وهي جماع الأخلاق الإسلامية، وفي الصيام تقوية لإرادة الشباب وتهذيب الغرائز⁵⁷، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"⁵⁸ ولشعيرة الصيام معاني جليلة بحيث يربي في النفوس أن الله عز وجل يراقبه، والإحساس بالجوع والعطش يعطي للصائم المعنى الحقيقي لحق الجائعين من الفقراء والمحتاجين والمرضى وابن السبيل وكذلك تعطي للفرد حب إتقان المهنة بإخلاص ويربي الناس على الصبر والقوة، ويحقق تربية النفس على العبودية والاستسلام لله عز وجل، وتربية للمجتمع وإحساسهم بالتضامن والتكافل فيما بينهم ويمنح فرصة لصحة الأبدان الخارجية والتوازنات التفاعلية الداخلية لخلايا الدم وتصفيتها وتقرب العبد من ربه بالطاعات والخضوع لله عز وجل.

6. مفهوم البعد الديني :

لكي نفهم البعد الديني، يجب تعريف الدين لغة واصطلاحاً .
 أولاً : الدين: فالدين لغة "حسب ما يقول الباحثون في أصل كلمة الدين تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه(دانه يدينه) وتارة من فعل متعد باللام(دان له) وتارة من فعل متعد بالباء(دان به)وبالاختلاف لاشتقاق تختلف الصور المعنوية التي تعطيها الصيغة .فإذا قلنا:(دانه ديناً)عنينا بذلك أنه ملكه، وحكمه، وساسه، ودبره، وقهره، وحاسبه وقضي في شأنه وجزاه وكافاه، فالدين في هذا الاستعمال يدور حول معنى الملك والتصرف بما هو في شأن الملوك (ملك يوم الدين)أي يوم المحاسبة، (الكيس من دان نفسه)أي حكمها، و(الديان)الحكم القاضي، وإذا قلنا(دان له)أردنا أنه طاعه، وخضع له فالدين هو الخضوع والطاعة والعبادة، والورع، وكلمة(الدين لله)هو الحكم لله أو الخضوع لله.وإذا قلنا(دان بالشيء)كان معناه أنه اتخذ ديناً ومذهباً، فالدين على هذا هو المذهب والطريق.وتعريف الدين اصطلاحاً جعل من الباحث الاجتماعي يبحث عن تعريف فالدكتور محمد دران

يعرف الدين بأنه الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات غيبية علوية لها شعور واختيار ولها تصرف وتدير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبحث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة و رهبة وفي خضوع وتمجيد."59. إن الدين في المفهوم الإسلامي جلي، "فلقد ورد لفظ الدين في القرآن الكريم في آيات عدة ومعاني شتى، فهناك المعنى البعيد عما هو شائع لهذا الاصطلاح، كما هو الحال في قوله تعالى: {ملك يوم الدين} وكتوله سبحانه: {وكننا نكذب بيوم الدين} فالملقود بالدين هنا هو الجزء والحساب. وهناك آيات أخرى يقصد بالدين فيها الدين في معناه العام والواسع سواء كان هذا الدين حقاً أو باطلاً، لقوله: {لكم دينكم ولي دين} أي لكم شريعتكم ومنهاجكم وأسلوبكم في الحياة... إلخ"60

ثانياً: البعد الديني في رمضان:

ولما نتكلم عن البعد الديني، فإننا نخرج أولاً إلى علم الاجتماع الديني بحكم أن الدين هو المؤثر في المجتمعات كافة على الأنساق الأخرى، والظاهرة الدينية موضوع أثار اهتمام الباحثين الاجتماعيين، لان الدين يؤثر على كل المعارف وكل الأنساق الأخرى السياسية والثقافية والعلمية والاقتصادية وغيرها، وكل نسق يتميز بخصائص وقواعد يضبطها الدين، إذا فالدين هو العمود الفقري للمجتمع ككل. إن النسق الاجتماعي الذي يتكون من الأنساق الفرعية كأعمدة لبناء النسق الكلي، يعتمد على النسق المركزي كعمود فقري للنسق الاجتماعي، وهو النسق الديني الذي يولي الاهتمام به من طرف الباحثين الاجتماعيين الكبار الكلاسيكيين والمعاصرين في قالب علم الاجتماع الديني وأن كل فرع من الأنساق الاجتماعية له خصائص مستمدة من الدين، وأن النسق الاقتصادي له أخلاق وقيم توجهه ويسير بمقتضاها حتى ولو أن هناك قوانين وضعية تضبطه فهو دائماً يلجأ إلى الأخلاق الدينية المكتسبة سواء من الأسرة أو التنظيم بحد ذاته، وكل نسق فرعي فهو يتكون كذلك من فروع جزئية أخرى تتفاعل فيما بينها لتعطي حركة ديناميكية وأخرى ساكنة على شكل فسيفساء نشط حسب الظروف لبناء النسق الفرعي، ومنه نسق الاستهلاك وكل هذه الأجزاء من الأنساق التي تكون النسق الفرعي تتأثر بنسق العمود الفقري للنسق ككل وهو النسق الديني، إذاً الدين دائماً موجود وله أثر حسب درجة احتياج هذا النسق إليه، ومنه فإن البعد الديني لا يمكن الاستغناء عنه في كل الحياة اليومية لأفراد المجتمع، وخاصة قوت الإنسان لان القوت اليومي

للفرد من الأكل واجب للبقاء على قيد الحياة واستمرارها وهو أول ما يحتاج إليه الفرد للعيش ويعتبر هذا القوت من ضمن نسق الاستهلاك والذي يخضع لقواعد تشريعية من الدين إن للدين دوراً كبيراً في المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى، "ففي العصور الوسطى قديماً كانت وظيفة الدين عند الغرب بانغماس الكنيسة في المجتمع الذي يدور حول وظيفتين هما وضع النظام وإقراره، وتوفير المأكّل والغذاء الحكم والقتال من ناحية والزراعة من ناحية أخرى وظيفتان أتاхта ظهور نظام المراتب الطبقية من النبلاء و الأشراف كقطاعيين تحكم، وطبقة عامة الشعب ثم تطورت الكنيسة وأصبحت هناك طبقة ثالثة هي طبقة الكهنة التي أصبحت فيما بعد أكثر المؤسسات الدينية أهمية ونفوذ لأنهم أكثر الرجال المتعلمين، وكانت للكنيسة قدر هائل من السطوة الأخلاقية والثقافية، وكانت القيم الدينية تعتبر عنصراً مركزياً بالنسبة إلى ثقافة البلدان المسيحية الأوروبية." 61 هذا البعد الديني الذي أخذ مجرى السيطرة التامة في العصور الوسطى بالنسبة للأوروبيين المسيحيين، وكان الدين يلعب دوراً كبيراً في المجتمع، ولكن في المجتمعات الإسلامية الدين غير محتكر وله أدوار متعددة في كل المجالات "ولقد عالج المستشرق ماكسيم رودنسون الدين الإسلامي حيث حاول أن يحدد تطور الإسلام كأيدولوجية دينية وأخذت أشكالاً متعددة تبنتها الدولة، ويتعرض للعلاقة بين هذا النوع من الايديولوجيا وبين الواقع الاجتماعي" 62 فالبعد الديني يكون قوي في المناسبات الدينية مثل الحج وصيام شهر رمضان الذي يتميز بفترة زمنية محددة هي شهر يتقرب بها العبد بربه، يكون الصائم خاضع لضوابط تشريعية تميزه أخلاق وقيم دينية عالية المقام لكي ينال من فضل الله، لان في هذا الشهر يتضاعف الأجر فيجب على الفرد المسلم ضبط نفسه ومراقبتها وعدم ارتكاب المعاصي، وعدم الإسراف والتبذير والتحلي بالاعتدال والإشباع في الإنفاق حتى يكون الصائم في درجة الإحساس بحق الفقراء والمساكين الذين هم في الحاجة اليومية إلى إيجاد قوت أنفسهم. لان الديانات والمعتقدات الدينية في المجتمعات ككل "تلعب دوراً هاماً في اختلاف الأنماط الاستهلاكية واتجاه أفراد المجتمع من كل ديانة نحو استهلاك سلع دون أخرى وفق للتحريمات الدينية تجاه مختلف السلع الغذائية" 63 .

7. علاقة الدين بالاستهلاك الغذائي في رمضان:

إن شهر رمضان هو شهر يتقرب به المسلم إلى الله أكثر بالعبادة، وبالتالي فهو شهر يتميز بشعيرة دينية ألا وهي شعيرة الصيام، ومعنى الصيام هو الإمساك والامتناع عن الأكل طوال النهار حتى الغروب عند آذان المغرب ويكون الفرد صائم بكل جوارحه وليس الامتناع عن الأكل فقط، وهنا يصبح مؤشر الغذاء له أهمية كبيرة عند الفرد الصائم، وتدخل عدة عوامل مؤثرة على الاستهلاك الغذائي ويتجسد عند الصائم المعنى الحقيقي للجوع، والمغزى من الصيام عند الله هو التقرب إليه بالطاعة حسب الضوابط الشرعية للدين الإسلامي، وبالتالي نستطيع أن نرى هذا الربط المباشر بين العامل الديني والامتناع عن الأكل، أي الدين وعلاقته بالاستهلاك الغذائي في إطار العبادة والتقرب إلى الله عز وجل بالصوم والإمساك عن الأكل بانخفاض نسبة الاستهلاك الغذائي في شهر واحد في السنة من ثلاث وجبات أو أكثر في بعض الأحيان في الأيام العادية إلى وجبتين في شهر رمضان للإحساس بحق الفقراء والمحتاجين وبهذا فإنه "ليس من السهل تجاهل هذا تناول في محاولة لتأسيس علم الاجتماع الديني في المجتمعات العربية - الإسلامية لأن طرح هذا المنهج ينزل جوانب تعتقد أنها دينية إلى أرض الواقع، ويجعل أفكار الدين المتعالية تتشابك مع متطلبات الحياة العادية وصراعاتها، كما يكشف عن التأثيرات المتبادلة بين الظواهر الإنسانية ومن بينها الدين والاقتصاد. ويعتبر ماكس فيبر الرائد الحقيقي لمبحث الأخلاق الاقتصادية والدين. وهناك أشكال تنظيم اقتصادي معين تتفق مع أخلاقيات اقتصادية محددة والأخلاق الاقتصادية ليست مجرد وظيفة تشكل تنظيمًا اقتصاديًا، وليس العكس". 64

8. استنتاج عام :

قد كان موضوع البحث محل اهتمام واسع في إطار أبعاده والذي تطلب استعمال المنهجين معاً الكمي والكيفي نظراً لطبيعة الظاهرة في الواقع الاجتماعي، ولتحليل الظاهرة بأكثر موضوعية نلجأ دائماً إلى المنظرين الاجتماعيين من بينهم المفكر "ماكس فيبر (Max Weber) الذي تساءل في مؤلفه عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ذات النمط الغربي، وتساءل لوسيان غولدمان (Lucien Goldmann) في مؤلفه سوسيولوجية الرواية، عن سبب سيطرة شكل أدبي معين، وتساءل مرتون (Merton) في مؤلفه للنظرية

الاجتماعية والبنیان الاجتماعي، عن أسباب وجود الماكينة السياسية الأمريكية التي هي مؤسسة فريدة من نوعها، كما تساءل توكفيل عن سبب احتواء فرنسا لعدد من التجمعات ذات الأبعاد الضعيفة أكثر من جاراتها. هذه الأسئلة مشتركة في الصفة بأسباب وجود ظاهرة وحيدة. وللإجابة عن هذه الأنواع من الأسئلة كالإجابة عن سؤال موضوع بحثنا الذي يتمحور في: هل توجد علاقة بين البعد الديني والسلوك الاستهلاكي الغذائي في رمضان لعينة من مجتمعاتنا الإسلامي؟ وهي بدون شك مطابقة نسبياً للتصورات الفكرية لماكس فيبر التي تدور محاورها بين الدين والاقتصاد، والتي تستدعي منهج يبرهن على أن "65 الظاهرة اجتماعية متضمنة في مجموع ظواهر أخرى تحت زاوية البحث عن التمثيلات النبوية لأعمال فيبر الشهيرة حول الرأسمالية في محاولة فهم بشكل أفضل أسباب ذلك وكان جوابه هو الدين البروتستانتي الكلفيني مركزاً على التشابه في البنیان كنظام رأسمالي غربي أساسه الكالفينية. يوضح هذا العمل منهجين الأول هو مفهوم النموذج المثالي الشهير في الرأسمالية والحساب العقلاني كصفة منطقية فردية لمفاهيم علم الاجتماع. والثاني هو بما يعرف اليوم بالمثالة النبوية، وذلك بتوضيح التوازي القائم بين بنيانين اثنين هما تصرف الملتزم الرأسمالي من جهة وبنيان العقلانية المترتبة من جهة أخرى، الذي يفسر بطريقة سببية. لان العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية تنجم عن تماثلها في البنیان "66. فالنموذج المثالي في بحثنا هو الاستهلاك الغذائي في رمضان كبعد اقتصادي، وتصرف سلوك المستهلك غير الملتزم بالبعد الديني هي الماثلة النبوية كتفسير سببي. مثل ما أكدته كرل مانهايم (Mannheim) في سوسيولوجيا المعرفة للتوافق بين الإنتاج الفكري لمجتمع ما مع مظاهره غير العقلانية، مثل عدم معرفة معاني الدين الإسلامي في فقه المعنى الحقيقي لمقاصد شعيرة الصيام كما نجد في مؤلف توكفيل (Tocqueville) من النظام القديم والثورة، مقارنته لعقلانية الفلسفة السياسية الفرنسية للقرن الثامن عشر مع الفكر السياسي الأنكلوساكسوني، حيث أكد التعارض العميق بين الصفة المثالية و الثورية للفلسفة الفرنسية، ووصف فلسفة النور بالنموذج المثالي وتفاهم كل الفلاسفة على أن العقل والقانون هو الأفضل عن العادات والتقاليد المعقدة "67. هذا ما نراه من تقاليد تهيم على مجتمعاتنا والتي كانت لها دور من بين الأنساق الأخرى في حدوث طفرة دينية أدت إلى ضعف في الوازع الديني لدى الكثير من

الفاعلين الاجتماعيين ومساهماتهم في ظهور زيادة في الاستهلاك الغذائي إلى درجة الإسراف . هذا النموذج المثالي أوحى بأبحاث منهجية حديثة لعدة ظواهر لا يمكن تفسيرها إلا بالسببية عند ماكس فيبر. ولقد طبق منهجية التحليل النوعي على التحليل الكمي، لاعتبارات اقتصادية واقتراحات عوض افتراضات ولكن وحسب طبيعة الظاهرة تم توظيف النوعين معاً وهذا حسب ما برهن عليه التفكير حول التحقيقات الكمية منذ عهد دوركايم ولازارسفيدل لعرض العلاقات الإحصائية كإجراءات للأبحاث في التحليل السببي وأن استعملنا لمنهجية التحقيقات الكمية كان داعماً لبحتنا، وللمقارنة بين نتائج التفسير النوعي والتحقيق الكمي باستعمال قوانين تخدم ببحثنا ولا تفرض نفسها على البحث.

إن ظاهرة الاستهلاك الغذائي في رمضان لها تفسير سببي بارز الأهمية، هو البعد الديني لان الظاهرة مرتبطة بفترة دينية محددة بشعيرة الصيام ولان مفهوم الصيام كان له الأثر على الأكل فإن الحاجة للزيادة في الأكل هي الزيادة في الاستهلاك أكثر، وبما أن رمضان شهر عبادة من المفروض تكون فيه كل معاني الصوم وبكل الجوارح، ويلتزم الفرد بالضوابط الشرعية للدين الإسلامي، لان رمضان هو شهر عبادة عقلانية وهي ميزة الأفكار الدينية للأخلاق الإسلامية ولكن نجد أكثر أفراد المجتمع يلهثون وراء هاجس الاستهلاك المفرط محمولين على أمواج غير دينية مما أضعفت من قيم وأخلاقيهم الدينية التي كانت سيدة الموقف في التفسير السببي وراء الإسراف في الاستهلاك .

الهوامش :

- 1- عبد الله محمد عبد الرحمان، النظريات في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية مصر، 2005، ص.ص 283-285
- 2- خالد فياض، مقال، ظاهرة الاستهلاك بين التحليل الاقتصادي والتفسير الاجتماعي رؤية نظرية مختلفة، موقع الأنترنيت
<http://www.swmsa.net/articles.php?action=show&id=631>
<http://ahronline.org.eg/articles.aspx?Serial=402832&eid=246>. بتصرف .
- 3- د بيومي محمد أحمد محمد، علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية مصر، 1996، ص. 42
- 4- مقابلة استطلاعية مع رئيس مصلحة النظافة لرفع القمامات ببلدية الاغواط (تضاعف نسبة النفايات في شهر رمضان).
- 5- Jean-Marie Tremblay, Max Weber, (1904-1905), *L'éthique protestante et L'esprit Du Capitalisme*, Dans le cadre de collection ; les classiques des sciences sociales ; site web ; « [www.uqac.quebec.ca/zone30/classiques des sciences sociales/index.html](http://www.uqac.quebec.ca/zone30/classiques_des_sciences_sociales/index.html) » . بتصرف
- 6- Jean-Marie Tremblay, Emile Durkheim, (1894), *Les règles de la méthode sociologique* Dans le cadre de collection ; les classiques des sciences sociales ; site web ; « www.uqac.quebec.ca/zone30/classiques des sciences sociales/index.html » . بتصرف .
- 7- الآية. 31 سورة الأعراف.
- 8- قتيبة عبدالرحمن العاني، مقال رمضان شهر الاقتصاد، من موقع الانترنت،
<http://www.badlah.com/print-121.html> بتصرف
- 9- رواه أحمد.
- 10- ماكس فيبر، الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلد، مركز الإتحاد العربي، بيروت، لبنان، بدون سنة، ص. 96. بتصرف.

- 11-مقالة، ملخص عن الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية، (مجلة أنفاس نت)، على الانترنت
الموقع الإلكتروني: [www. Infassenet.org](http://www.Infassenet.org)
- 12- *Manuel de Recherche en Sciences Sociales* Raymond Quivy, Luc van Campenhoudt, BORDAS, Paris, 1988, p.14.
- 13-موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية، ترجمة: بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سبعون، الإشراف و المراجعة: مصطفى ماضي دار القصة للنشر، الجزائر، 2004. ص.150.
- 14- علي ليلة، ماكس فيبر و البحث المضاد في أصل الرأسمالية المعاصرة، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2004، ص.7.
- 15- Ben Fine – author , *The Material and Cultural Revisited* , Routledge , London – 2002 p.x
- 16- HALTON (B) , *First international conference on sociology of consumption* , Univ of OSLO, Jan, 1988 , *Journal of URBAN and Regional research* , VOL12 Norvegia, 1988 P04
- 17- Ben Fine – author , *The Material and Cultural Revisited* , Routledge , London – 2002 p., x
- 18-إنعام عبد الجواد، النسق القيمي في الريف المصري، قيم الإنتاج والاستهلاك، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1998، ص . 21.
- 19-محمد يسرى إبراهيم، اقتصاديات مجتمع الانفتاح، دار أم القرى للطباعة والنشر الإسكندرية، الإسكندرية، 1997، ص 52.
- 20-عبد العزيز فهمي هيكل، موسوعة المصطلحات الاقتصادية الإحصائية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لبنان 1986، ص 553.
- 21-عبد الرحمن السيد فهمي، الاستهلاك في مجتمعات الخليج العربي، مركز دراسات الجزيرة العربية، الرياض، 1999، ص 148.
- 22-ماكس فيبر، الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلد، مركز الإتحاد العربي، بيروت (بدون تاريخ) ص ص 16 – 19.
- 23-احمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، مرجع سبق ذكره. ص. 557 .
- 24-د. احمد الخشاب، مرجع سبق ذكره. ص. 13
- 25- Jean-Marie Tremblay, Max Weber, (1904-1905) *L'éthique protestante et L'esprit Du Capitalisme*, Dans le cadre de collection ; les classiques des sciences sociales ;site web ;« [www.uqac.quebec.ca/zone30/classiques des sciences sociales/index.html](http://www.uqac.quebec.ca/zone30/classiques_des_sciences_sociales/index.html) » .p.p. 15 – 22 .

- 26-د . احمد الخشاب، مرجع سبق ذكره .ص.ص. 566 - 567 .
- Raymond Boudon, *Sociologie des Valeurs Revue Française de sociologie*, n°47--27 4 ;centre national de la recherche scientifique ; France ; octobre-décembre,2006.p.887.
- 6Wolfgan Schluchter .Lire Max Weber . *Revue Française de sociologie*, n°4-28 4 ;centre national de la recherche scientifique ; France ; octobre-658.p.5décembre,200
- 29-أحمد زايد، المداخل النظرية في دراسة القيم، نحو مدخل نظري لدراسة قيم العمل في المجتمع القطري، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، الدوحة، 1994، ص.ص 81 - 101 .
- 30-د . احمد الخشاب، مرجع سبق ذكره ص. ص. 701 - 702 . بتصرف .
- Durkheim (Emil), *LE SUICIDE, Etude de sociologie, livre troisième ; du suicide -31 comme phénomène social en général ; Dans le cadre de collection ; les classiques sciences sociales ;site web ; « www.uqac.quebec.ca/zone30/classiques des sciences sociales/index.html »*.p.85.
- 32-د . احمد الخشاب، نفس المرجع هـ ص. 553 . بتصرف .
- 33-عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، الجزء الثاني الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص.ص.(438-439) .
- 34-عبد الرحمان ابن خلدون، نفس المرجع ص.439، بتصرف .
- 35-عبد الرحمان ابن خلدون، نفس المرجع ص.ص.(440-441) ، بتصرف .
- 36-د . احمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، مرجع سبق ذكره، ص.ص.313-315 .
- 37-Jean-Paul . *Charnay,Sociologie religieuse de L'Islam ,éditions sindbad*, Paris,1977.p.15 . بتصرف
- 38- *Ibid* , p. 46-38 . بتصرف
- 39-Jean-Paul . *Charnay , même ouvrage* , p. 47 . بتصرف
- 40- *Ibid* , p. 47 . بتصرف
- 41- *Ibid* , p. 47 . بتصرف
- 42-العيسوي ابراهيم شحات، اقتصاديات الوفرة، المركز الدولي للدراسات، بيروت، 1997 ص 124 العيسوي ابراهيم شحات، المرجع السابق، ص 125 .
- 43-أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعي، الجزء الأول ، دار الكتاب العربي للبحث والنشر الإسكندرية 1967 ، ص 13

- 44- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع وطبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وآخرون دار المعارف، القاهرة 1986، ص 333
- 45- أحمد مجدي حجازي وآخرون، المجتمع الاستهلاكي ومستقبل التنمية في مصر، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2001، ص 100
- 46- سناء الخولى، التغير الاجتماعي والتحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 198 ص 256.
- 47- لأية. 168. سور البقرة.
- 48- لأية. 31. سورة الأعراف.
- 49- لأية. 26-27. سورة الإسراء.
- 50- لأية. 67. سورة الفرقان.
- 51- منظور أحمد الأزهر، ترشيد الاستهلاك الفردي في الاقتصاد الإسلامي، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة، القاهرة، 2002، ص ص 98- 102.
- 52- ولمزيد من المعلومات ارجع إلى: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب "من جاهد نفسه في طاعة الله".
- 53- سنن الدارمي، كتاب المقدمة، برنامج الحديث الشريف، رقم الحديث. 538.
- 54- سورة البقرة، الآية 185.
- 55- محمد عبد الرحيم الحصى : فقه العبادات، الأزهر الشريف، مصر، 1994، ص. 176 . بتصرف.
- 56- يوسف القرضاوي : مدخل لمعرفة الإسلام، مكتبة الوهبة، مصر، 1976، ص. 19.
- 57- حديث شريف رواه مسلم .
- 58- حسين علي مصطفى حمدان، نشأة الدين بين التصور الإنساني و التصور الإسلامي دراسة في علم الاجتماع الديني ، مؤسسة الإسراء للنشر و التوزيع، قسنطينة، الجزائر ط. 1، 1991، ص. ص. 8- 12 . بتصرف
- 59- حسين علي مصطفى حمدان، نفس الرجوع ص. 28 .
- 60- الدين في المجتمع العربي، مرجع سبق ذكره ص. 72 . بتصرف .
- 61- الدين في المجتمع العربي، مرجع سبق ذكره ص. 54 . بتصرف
- 62- د. محمد يسرى ابراهيم، الاستهلاك و العوامل المؤثرة فيه، رؤية في الانثروبولوجيا الاقتصادية، سلسلة المعارف الاقتصادية والإدارية رقم 6، 1997، ص. 24 بتصرف
- 63- مركز دراسات الوحدة العربية، الدين في المجتمع العربي، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ط. 1، بيروت، لبنان، 1990، ص. ص. 59 - 60 .

Raymond BOUDON,, même ouvrage, p.p (96 – 119) .-64
يتحفظ

Ibid, p.p (96 – 119) .-65
يتحفظ

Ibid, p.p (96 – 119) .-66
يتحفظ